الشمّاسات، شرطونيّة النساء في التقليد الليتورجي الأرثوذكسي،

نصوصٌ من تعليم الرسل الاثنيّ عشر والقوانين الرسوليّة

ماريَّا قباره

إنَّ موضوع المرأة لا يزال راهنًا في الواقع الكنسيّ، لا بل إنَّه من أكثر المواضيع راهنيّة. فتطوّر المجتمع ودخول المرأة إلى سوق العمل واعتلائها سدّة الرئاسة في بلدان أوربيّة عديدة، وظهور حركات تحريرها والمطالبة بحقوقها عبر دراسات، كتلك التي وضعتها سيمون دو بوفوار وجوديت بتلر وكلّ الكتابات الواقعة تحت عنوان الجندر والجنسانيّة، لا سيّما بعد سيامة المرأة في الكنائس الإنجيليّة الغربيّة ورفعها إلى رتبة الأسقفيّة، حملت الكتّاب واللاهوتيّين المعاصرين إلى الكتابة في موضوعها والمطالبة بمساواتها في الرتب الكهنوتية أسوة بالرجل. بعضهم دعا، إلى إخراجها من الإطار الذي ترعرعت وعملت فيه منتقدًا الغبن الذي لحقها تاريخًا، وبعضهم الآخر شدَّد على صون التقالي د المحلّيّة.

وعلى الرغم من التحديّات التي تتعرّض لها النساء في المجتمع المعاصر، وإلى جانب الخطوات الإيجابيّة الخجولة التي قامت بها الكنائس الغربيّة تجاه المرأة، يبقى أنَّ قضيتها ما زالت غير مطروحة على جدول أعمال الكنيسة الأرثوذكسيّة، وهذا الأمر يعود بشكل أساسي إلى لا مبالاة وعدم اكتراث المسؤولين الكبار في الكنيسة تجاه هذه القضيّة. وما زال واقع الكنيسة الأرثوذكسيّة يأسر المرأة ويحتجزها في بعض محرّمات العهد القديم، فنجد في بعض الفكر الكنسيّ أنّ النساء تتوارثن عواقب السقوط الكتابيّ في المجتمعات التي تعيش فيها، أو نلمس التناقض والتوتر الحاصلَين بين حرية النساء في تعليم المسيح وبين المؤسسات الدينيّة الأبويّة التي أدانت بصمت المرأة.

إنّ الأسرار الكنسيّة تخوّل الإنسان أن يصبح عضوًا في الكنيسة ولا تميّز بين الذكر والأنثى. فالمعموديّة، على سبيل المثال، هي العبور إلى حياة جديدة في المسيح يسوع، وختم الروح القدس لأعضاء الجسد؛ والميرون يجعل من كلِّ معمَّد، ذكرًا كان أم أنثى، عضوًا كاملاً في الكنيسة. لكنّ الحركة الطقسيّة تتناقض مع ما سبق وتخلق فروقات بين الذكر والأنثى، إذ يُدخل الكاهنُ الولد الذكر المُعمَّد وحده إلى الهيكل وراء الأيقونسطاس، أمّا الإناث فيُبقيهنَّ في صحن الكنيسة، ممّا يعني أنّ الكنيسة الأرثوذكسيّة تميّز بين الجنسين. وإذا عدنا إلى - تعليم الآباء بعامّة، والكبادوكيّين بخاصّة، لتوضيح الرؤية اللاهوتيّة للإنسان نجد أنّ الآباء الكبادوكيّين، باسيليوس الكبير، وغريغوريوس النيصصيّ وغريغوريوس النزينزيّ، فضلاً عن القدّيس مكسيموس المعترف، لا يفرّقون بين الرجل والمرأة في الخلق على صورة الله.

وفي الفترة الآبائيّة التي ترافقت مع المجتمع الذكوريّ طوَّر الآباء مفهوم شموسيّة المرأة كردٍّ فعلٍ على حاجات المجتمع البطريركيّ آنذاك، بغية إعادة التوازن بينها وبين الرجل، مستندين إلى تعليم الكتاب. «فالمرأة كالرجل لها امتياز الخلق على صورة الله ومثاله. فخالقهما واحد، وطبيعتهما متساوية، وموتهما ودينونتهما وقيامتهما واحدة» (القدّيس باسيليوس الكبير).

بناء على ذلك فإنَّ الحديث عن المرأة في النصّوص الكتابيّة والآبائيّة يحتّم علينا العودة في هذه المقالة إلى بعض النصّوص التي ظهرت في القرون الأولى، والتي تناولت دور المرأة ومكانتها في الكنيسة الأولى، عَنينا بها تعليم الرسل الاثنيّ عشر (الذيذاسكاليّا) والقوانين الرسوليّة. فقد دلّت الدراسات، التي تناولت هذه النصّوص، أنَّ المرأة لعبت دورًا بارزاً ومميّزًا في مجتمعها، إذ تحدثتْ عن ظاهرة راجت لقرون عدّة، ثمّ ما لبثت أن اندثرت أو كادت تندثر، عَنينا بها رتبة المرأة الشمَّاسة.

المرأة الشمّاسة في تعليم الرسل الاثنيّ عشر والقوانين الرسولية

إنَّ هذه الرتبة تتخطّى مجرّد انخراط المرأة في الخدمة الكنسيّة والرسالة الاجتماعيّة اللتان قامت بهما الأرامل والعذارى قديمًا، كما سنرى لاحقًا، وكما يقوم بهما اليوم آلاف من النساء، راهبات وعلمانيّات. إنّ هذه النصّوص التي تحدَّثت عن الشمَّاسات وضّحت روح الإنجيل، وصورة المرأة كمساوية للرجل من ناحية الخدمة في الكنيسة. فمن هي المرأة الشمَّاسة بحسب تعليم الرسل الاثنيّ عشر والقوانين الرسوليّة؟ وما هي طبيعة رسامتها والواجبات التي كانت مترتّبة عليها، وعلاقتها بالرتب الكنسيّة الأخرى؟

سأكتفي في هذا المقال بعرض الجوانب التاريخيّة لرتبة المرأة الشمَّاسة، انطلاقًا من هذين المرجعَين، لا سيّما النصّوص الليتورجيّة فيهما. ولكن قبل الدخول في هذه النصّوص، لا بدَّ لي من التذكير بالملاحظات الآتية:

• إنَّ اسـم المـرأة كشيخة (πρεσβυτέρα) أو شمَّاسة (διακόνισσα) وردَ للمرّة الأولى في رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، التي يقول فيها عن فيبي أنَّها «خادمة الكنيسة في كنخريا» (رومية16: 1). وفي الرسالة الأولى إلى تيموثاوس، إذ ينصح الرسول أن «تكون النساء ذوات وقار غير ثالبات صاحيات أمينات في كلّ

شيء» (1تيموثاوس3: 11) علمًا إنَّ هذا المقطع يرد كجملة اعتراضيّة بين مقطعين يتحدّثان عن الصّفات التي يجب أن يتحلّى بها، أيضًا، الشمامسة (الذكور).

• إنَّ أول إشارة إلى وجود شمَّاسات في الكنيسة جاءت في رسالة وجهّها بلايني حاكم بيثينيا إلى الامبراطور طراجان، عام 112، يقول فيها إنَّ اثنتين من النساء اللواتي أخضعهنَّ للتعذيب كانتا من الشمَّاسات.

• إنَّ البابا سوتيريوس (166-174) يوصي في معرض حديثه عن الشمَّاسات أن لا يمسسن الأواني المقدّسة أو يبخرّن المذابح أو يقدّمن الذبيحة.

تُعتبر نصوص تعليم الرسل الاثنيّ عشر والقوانين الرسوليّة من أقدم الوثائق التعليميّة المسيحيّة، فتعليم الرسل الاثنيّ عشر كُتب على الأرجح في نصّه اليونانيّ الأصليّ في منتصف القرن الثالث في أوساط سوريّة. ويتألف هذا الكتاب من ستة عشر فصلاً، مقسّمًا إلى قسمين رئيسيّين: التعاليم الطقسيّة، وقوانين الانضباط. ونصوص تعليم الرسل الاثنيّ عشر والقوانين الرسوليّة المتوفّرة لدينا تعتبر أوّل وثيقتين غير كتابيّتين تتحدّثان عن المرأة في الكنيسة، إذ وردَ فيها ذكر الشمَّاسات، ليسَ فقط كفئة متميّزة عن العذارى والأرامل، بل كجهاز من أجهزة الخدم الطقسيّة الكنسيّة، له التزامات راعويّة وليتورجيّة واضحة المعالم، بالمقارنة بمهام الشمّامسة الذين يتميّزون عن الشمَّاسات بنطاق خدمة أوسع. غير أنَّ هذه النصوص التي تناولت وظيفة الشمَّاسة، اعتمدت بمعظمها على ما ورد في رسالة بولس الرسول التي تحدَّثت عن الشمَّاسة فيبي.

يختلف الرأي في أوساط اللاهوتيّين حول هوية الشمَّاسة فيبي ودورها، فثمّة فئة رأت في فيبي شمَّاسة استنادًا إلى رومية (16: 1- 2): «أوصي إليكم بأختنا فيبي، التي هي خادمة الكنيسة التي في كنخريا، كي تقبلوها في الربّ كما يحقّ للقدّيسين، وتقوموا لها في أيِّ شيء احتاجته منكم، لأنَّها صارت مساعدة لكثيرين ولي أنا أيضًا». بينما ذهبت فئة أخرى إلى رفض شموسيّة النساء بحجّة أنَّ فيبي لم تكن شمَّاسة بالمعنى الليتورجيّ الكهنوتي الأسراريّ. في حين رأت فئة ثالثة أنَّ الشمَّاسات هنَّ مجرد معاونات للكهنة لا صلة لهنَّ بالعبادة وإقامة الأسرار... الخ. إنّنا نعتقد أنَّ مسألة شموسيّة المرأة ترتبط إلى حدٍّ بعيد بمسألة كهنوت النساء وإقامتهنَّ للذبيحة الإلهيّة، وبما أنَّ العهد الجديد لا يقدِّم خارج ما ورد في رسالة بولس أيّة معلومة تفصيليّة عن وظيفة الشمَّاسة، وجب علينا الاحتكام إلى تاريخ الكنيسة، وبالتحديد إلى القوانين الرسوليّة ومقرراتها المسكونيّة والمحليّة.

إنَّ قارئ القوانين الرسوليّة يلفته ذكر الشمَّاسات في القانون 19 من مجمع نيقية الوارد في تعليم الرسل الاثنيّ عشر، والذي يتحدَّث عن رسامتهنَّ وعلاقتهنَّ بالعلمانيّين في الكنيسة. ففي هذا القانون الوارد نصّه في سياق الحديث عن أتباع بولس السميسطائي (حوالي 260) - وهم أصحاب بدعة قديمة في الثالوث الأقدس- يقرّر المجمع النيقاويّ ما يلي: «إنّنا نحدد أنَّ أتباع بولس السميسطائي اللاجئين إلى الكنيسة الجامعة يجب أن تعاد معموديتهم على كلِّ حال. وإذا كان أحدهم قد أحصي سابقًا مع الإكليريكيّين ووجد بعد الفحص أنَّه بلا عيب فليسمه أحد أساقفة الكنيسة الجامعة بعد إعادة معموديته، ومن وجد منهم غير مستحق فيجب أن يسقط. ولتراعَ هذه القاعدة في شأن الشمَّاسات وكلّ من أحصي في السلك الإكليركيّ عامّة. ونعني بالشمَّاسات اللواتي توشحنّ بالثوب وهنَّ يحصين مع العوام لأنّهنّ لم ينلن سيامة».

يتبيّن لنا من نصّ القانون الرسوليّ هذا أنَّ المرأة احتلت وظيفة محدّدة في الكنيسة هي وظيفة الشمَّاسة. ولعلَّ بعض الشمَّاسات - أقلّه في الكنيسة الهرطوقيّة - حصلن على الرسامة بوضع اليد، وبعضهن الآخر كنَّ شمَّاسات من غير رسامة. غير أنَّ هذا القانون يطرح، أيضًا، خلافًا يتعلّق بالمسألة الآتية: هل أنَّ وضع الأيدي كان يعني رسامة كهنوتيّة أم تكريسًا معينًا نتج عنه إسناد وظائف محددّة للنسوة اللواتي وقع الاختيار عليهنَّ لخدمة الكنيسة؟

الرسامة بالشرطونيّة (χειροτονία) تعني وضع اليد مباشرة على رأس المرتسم وهي في نظر القوانين الرسوليّة غير مدّ اليد (χειροθεσία) وغير البركة (εὐλογία). والأسقف وحده من يقوم بالشعائر الثلاث.

يقول تعليم الرسل الاثنيّ عشر «علينا أن نكرّم الشماسات لأنهنَّ مثال الروح القدس». واللغة تعكس عبارات القدّيس اغناطيوس الأنطاكي «الاسقف هو رمز أو مثال لله الآب القدّوس مثل المسيح والشماسة مثال للروح القدس».

يقول القانون 19 من المجمع المسكوني الأول إنَّ النساء الشمَّاسات يعاملن كعموم النساء. وهذا ما أكدَّ عليه القدّيس أبيفانيوس أسقف سالاميس الذي شدّد على أنَّ وضع الأيدي لا يعطي النساء الشمّاسات صفة كهنوتيّة. علمًا أنَّ لاهوتيّين معاصرين، كالأسقف كاليستوس وير وجان دانييلو، في تفسيرهم لهذه القوانين يعارضون كلام القدّيس أبيفانيوس، إذ يؤكّدون حصول رسامة للمرشّحات إلى الشموسيّة، وليس فقط تبريكًا بواسطة وضع الأيدي. والجدير بالذكر، أيضًا، أنَّه يرد نصّ صلاة رسم الشمَّاسة ضمن القوانين الرسوليّة وتحديدًا في نظام برثلماوس الرسول حيث يتوجّه الكاتب إلى الأسقف بقوله: «عليك أن تضع يدك عليها بحضور الكهنة والشمامسة والشمَّاسات».

يلفت الباحث في موضوع المرأة ومكانتها في الكنيسة القانون 11 من مجمع اللاذقية الذي انعقد في النصف الثاني من القرن الرابع . فيه نجد رفضًا قاطعًا لشموسيّة المرأة، إذ نقرأ ما يلي: «لا مجال كي يكون هناك

شيخات ورئيسات في الكنيسة». غير أنَّ هذا القانون الصادر عن هذا المجمع، هو قانون مربك ومحيّر وأكثر لغزيّة وإبهامًا من مجمع اللاذقية نفسه الذي لا نعرف بالتحديد تاريخ انعقاده وعضويّة المشاركين فيه. فليسَ لدينا نصٌّ كاملٌ للقوانين الصادرة عنه. لكنّ الكنيسة تعود إلى بعض قوانين هذا المجمع في بعض الأحيان. تجدر الإشارة في هذا السياق إلى أنَّ اللاهوتيّين والقانونيّين لم يستقرّوا على رأيّ واحد بصدد التفريق بين الشيخات والرئيسات، وذلك لأنَّ هاتين المفردتين الواردتين معًا في القانون 11 رئيسات وشيخات- πρεσβύτερες ، غير مذكورتين إلاَّ فيه.

إذا تابعنا قراءة القوانين الرسوليّة المتعلّقة بالمرأة، لا سيّما تلك التي صدرت عن مجمع خلقيدونية في القرن الخامس، القانون15 تحديدًا، نجده يقول ما يلي: «لا تُسام امرأة شمَّاسة قبل بلوغها الأربعين، ويجب أن تجتاز فحصًا دقيقًا واختبارًا صارمًا. ولكنَّها إذ أقدمت بعد حصولها على نعمة السيامة وقضائها مدَّة في الخدمة على إعطاء نفسها للزواج محتقرة النعمة الإلهيّة فلتبسل هي والرجل الذي اقترنت به».

ونجد، أيضًا، في القانونَين 14 و 40 من المجمع الخامس- السادس المنعقد في ترولو، شرط سنّ الأربعين سيامة المرأة شمَّاسة، «لا يجوز أن يُسام شمَّاس قبل بلوغه الخامسة والعشرين ولا تُسام شمَّاسة قبل بلوغها الأربعين».

من الواضح عبر هذه القوانين أنَّه كان للمرأة في الكنسية الأولى رتبة خاصّة هي رتبة الشمَّاسة، وأنَّ هذه الرتبة ميَّزتها عن سائر العوام عبر إسناد وظائف تعليميّة وبشارية معينة إليها.

مكانة ومهام المرأة الشمّاسة في التقليد الليتورجي

في دراسة نُشرت في رومانيا عام 1976 تناولت وظيفة الشمَّاسة في الكنيسة كما تحدَّثت عنها تعليم الرسل الاثنيّ عشر والقوانين الرسوليّة، ذكرَ اللاهوتيّ الرومانيّ إيفانجلوس تيودورو أنَّ الشمَّاسات كنَّ يعطين الزنار أثناء الرسامة، أيّ الأورايـون، وأنهنَّ كنَّ يتقدمنَّ إلى الكأس المقدّسة، فيتناولن أمام المذبح داخل الهيكل مع رجال الإكليروس، ليستلمن الكأس بعد الانتهاء ويضعنَها على المائدة. يؤكّد إيفانجلوس إنّه، بعكس رسامة القارئ والمرتل ومساعد الشمَّاس، كانت رسامة الشمَّاسة تُقام داخل الهيكل وأثناء القدّاس الإلهي. في أثنائها يُتلى نصَّين من الأفاشين الخاصّة برسامة الشمَّاسة، بينما في حالة رسم القارئ والمرتل ومساعد الشمّاس يُتلى نصّ واحد للتبريك. يهمّنا في هذا الإطار الإشارة إلى أنَّ الشمّاسات حُسبن في قوانين الامبراطور يوستنيانوس في مصّاف الإكليروس.

ونشير كذلك إلى تعليق الأسقف كاليستوس وير على القانون 19 من النظام الرسوليّ الذي يوصي بأن تكرّم الشمَّاسة منكم بمنزلة الروح القدس، إذ قال «إنَّ الرجل هو أيقونة المخلّص والمرأة أيقونة الروح القدس»، مستشهدًا ببعض المراجع السريانيّة القديمة وببعض ما جاءَ في التراث اليونانيّ أنَّ الروح القدس كان يرمز له في التصاوير على أنَّه امرأة. يقول الكاتب السريانيّ أفراهاط (بداية القرن الرابع) «إنَّ علاقة المسيحيّ هي بالله أبيه والروح القدس أمّه».

وبالعودة إلى تفصيل وظيفة الشمَّاسة، كما تظهر في تعليم الرسل الاثنيّ عشر والقوانين الرسوليّة، نجد أنَّ المرأة الشمَّاسة توكّلت بمهام ليتورجيّة ورعائيّة ارتبطت بتهيئة النساء لاقتبال المعموديّة، إذ مُنح لها شرف إعطائهنّ مسحة الزيت المقدّس، ومتابعتهنَّ بالتعليم بعد ذلك.

يرد في تعليم الرسل الاثنيّ عشر «أنَّ المعتمد، رجلاً كان أم امرأة، كان يهبط إلى ماء المعموديّة عاريًا. وكان جسمه كلّه يُدهن بالزيت قبل المعموديّة. وكان الأسقف يُعنى بدهن الرأس. وأمَّا النساء فلم يكن من اللائق أن يقع عليهنَّ نظرُ رجل وهنَّ عاريات، فكان على الشمَّاسة أن تقوم بدهن سائر أجسامهنّ. بيد أنَّ الرجل وحده لا الشمّاسة يستدعي على المعتمدين والمعتمدات الأسماء الإلهيّة. فإذا صعدت المعمّدات من حوض الماء، كان على الشمَّاسة أن تتعهدهنَّ بالتعليم والتثقيف، وشرح ما يتوجّب عليهنَّ من التزامات المعمودية». ويرد، أيضًا، أنَّه من مهام الشمَّاسة زيارة المرضى والاعتناء بهم.

غير أنَّ مهام الشمَّاسة بقيت محصورة ضمن حدود معينة. فنحن لا نجد مثلاً في تعليم الرسل الاثنيّ عشر أيّة إشارة إلى اشتراك الشمَّاسة في مساعدة الأسقف في إتمام ذبيحة القدّاس الإلهي. لكنَّنا نجد أنَّ بعض المصادر تُجمع على أحقيّتها بالمناولة من الكأس المقدَّسة داخل الهيكل من يدّ الأسقف نفسه، وبمزج الخمر والماء وتحضير الأواني المقدّسة، وتبخير الإكليروس والكتاب المقدَّس والأخوات وقراءة الانجيل وترتيل المزامير، وفي حال غياب الأسقف، تناول الشمَّاسة النساء والأطفال، وتعطي مسحة الزيت المقدَّس للمرضى من النساء لعدم تمكن الإكليروس الرجال من القيام بهذا العمل. ولعلَّ إناطة هذه الوظائف الليتورجيّة بالشمَّاسة ترتبط إلى حدٍّ بعيد بالبيئة والمجتمع الذي كان سائدًا آنذاك.

ونجد، أيضًا، في نظام القدّيس أبيفانيوس إشارات كثيرة إلى الشمَّاسات ووظائفهنَّ ومكانتهنَّ في الكنيسة. فهنّ يُعنَين بالسّيدات في الأحوال التي تقتضيها اللياقة والحشمة. غير أنَّه يتوسّع في الحديث عن أهلية النساء اللواتي بإمكانهنَّ التقدّم إلى الشموسيّة. فيشدّد على أن تكون المتقدّمة لهذه الوظيفة، في حال كانت متزوّجة أن تكون امرأة رجل واحد، مع حفظ العفّة، أو أن تكون أرملة لم تتزوّج إلاَّ مرّة واحدة، كحال ثيوسيبيا زوجة غريغوريوس النيصصيّ، أو عذراء قد نذرت البتوليّة الدائمة، كالشمَّاسة أولمبياس صديقة النيصصيّ والذهبيّ الفم، وماكرينا شقيقة

باسيليوس الكبير وغريغوريوس النيصصيّ وبطرس أسقف سبسطية. وهذه الشروط نفسها المفروضة على الأسقف والكاهن والشمَّاس الإنجيليّ والرسائليّ.

يؤكّد القدّيس أبيفانيوس في نظامه على البعد الحقيقي لخدمة الشمَّاسات، إذ يقول: «إنَّ النساء لم يسمح لهنَّ على الإطلاق أن يقدمن الذبائح بل كان يسمح لهنَّ بالخدمة العادية، ومن ثمّ يتابع أنَّه لم يكن لهنَّ أيّة صفة كهنوتيّة على الإطلاق». ولعلَّ أوضح ما يقال هنا تعليق الأب جان دانييلو على هذه القوانين، إذ قال: «على الأرجح إنَّ الكنيسة كانت تقف دومًا ضدَّ إضفاء صفة محددة على الأدوار النسائيّة، فهي كانت تترك المبادرة لها لأن تتطوّر بحسب الحاجة المستجدّة. لذا، فنحن نرى هذا الشكل أو ذاك من الأدوار يظهر ثمّ يختفي».

تجدر الإشارة في هذا السياق إلى أنَّ دور الشمَّاسات قد تدهور في النصف الثاني من القرن الأول وبداية القرن الثاني بعد الميلاد، في حين اكتسبت فئة الأرامل منزلة خاصّة. فقد أخذن يجمعن الإحسان ويقمن الصلاة والخدمة في البيوت من أجل المحتاجين، أمَّا في القرن الثالث، فقد تقلّص دور الشمَّاسات وأصبحت خدمتهنَّ شبيهة بتلك التي للأرامل. يذكر اللاهوتيّ تاراسار، في معرض حديثه عن رتب الإكليروس في القرون الأولى، أنّه «على الأرامل أن يكنَّ خاضعات للأسقف والكهنة والشمامسة والشمَّاسات، ويؤكّد كذلك على أنَّ صفة الشمَّاسات الإكليريكيّة لم تكن قد اتضحت إلى القرن الثالث، أيّ إلى ما قبل مجمع نيقية المسكوني الأول». غير أنَّ الجدال القائم بين الباحثين حول تحديد وظيفة ودور المرأة في الكنيسة، تراجع بعد القرن الخامس، إذ أجمع الباحثون من مؤرّخين ولاهوتيّين على تدهور دورها في الخدمة الكنسيّة للأسباب والمؤثرات الآتية:

• مبالغة بعض الهرطقات في إعطاء دور للمرأة. نورد، على سبيل المثال، بدعة «مرقيون» الغنوصيّة التي أعطت النساء موهبة التعليم والتعميد، والمونتانيّة التي برزت عبرها مكسيميلا وبريسكيلا (غلاطية 5: 20)، ولربما شكّل بروزهنَّ ردّة فعل لدى الكنيسة.

• تبدّل الظروف التاريخيّة، بعد القرن الخامس في الشرق، التي زادت المجتمع البطريركيّ حضورًا، وخاصّة بعد ظهور الإسلام الذي لا يختلف عن اليهوديّة في نظرته إلى المرأة وإلى نجاسة الجسد وما يصدر عنه من إفرازات.

• تأثير اليهوديّة في العبادة والحياة والقوانين المسيحيّة الذي زادَ بسبب من تطوّر العلاقات بين الكنيسة والدولة في الامبراطورية البيزنطيّة وتشكيل القانون الكنسيّ وتشريعه، بحيث عادت الكنيسة إلى التشريع اليهوديّ. وهذا ما يلاحظه اللاهوتي الأرثوذكسيّ إفدوكيموف بقوله: «إنَّ ظاهرة خطيرة جدًا دخلت تاريخ المسيحيّة، واخترق التأثيرُ اليهوديّ روحَ القوانين المسيحيّة». ويتضّح هذا عبر القانون 44 من مجمع اللاذقية 364م. «لا يجوز للنساء الدخول إلى مذبح التقدمة (الهيكل)» ، والقانون 69 من مجمع ترولو، «حيث مُنعت المرأة من دخول الهيكل بسبب الصفات التي تملكها طبيعتها».

وهنا يلمع في ذهننا سؤال: إذا كانت المرأة تُمنع من دخول الهيكل بسبب من طبيعتها الفيزيولوجيّة، فمن يا تُرى يخدم مع الكاهن في الأديار النسائيّة؟ من ينظف الهيكل فيها؟ ولماذا نُدخل الأطفال الذكور إلى الهيكل في الأربعينيّة الأولى لولادتهم، أمَّا البنات الحديثات الولادة، فنبقيهنَّ خارجًا؟ فإذا كانت الدورة الشهريّة هي السبب الأساس من وراء منع المرأة من التعبّد في الكنيسة، فلماذا لا نُدخل الفتاة الحديثة الولادة والتي لم تبلغ بعد إلى الهيكل؟ وما الذي يحول جوهريًّا دون دخول المرأة إلى الكنيسة في فترة الحيض؟ هل فيزيولوجيّة المرأة نجاسة؟ ماذا يقول العلم في هذا الموضوع؟ وهل تصبح المرأة طاهرة إذا لم يأتها الحيض نهائيًا؟ وهل عالم المرأة النفسيّ مُفكّك، بينما عالم الرجل كامل لا عيبَ فيه؟ لماذا تُمنع المرأة من دخول الهيكل، بينما يُسمح للرجل بالدخول إليه ساعة يشاء؟ لماذا نسمح للرجل ما نحجبه عن المرأة جُزافًا وكيفما اتفق؟ هل هذا موقف لاهوتيّ ومنطقيّ، أو ينمُّ في عمقه عن الاقتناع بفوقيّة الرجل ودونيّة المرأة، بطهارة الرجل كلّ حين ودنس المرأة كلّ حين؟ إنَّ مفهوميّ الطهارة والنجاسة في ما يتعلّق بالفيزيولوجيا هما مفهومَين بائدَين. ويسوع المسيح نفسه تجاوزهما. فالمساواة تامّة بين الرجل والمرأة (غلاطية 3: 28)، لا بل كثيرًا ما تكون النساء هنَّ العامود الأكبر في حفظ البيت وليس الرجل.

وتلاحظ اللاهوتيّة الفرنسيّة إليزابيث بيهر-سيجل في هذا الشأن أنَّ جميع القيود المفروضة على النساء والتي بقيت قائمة في الكنيسة، إنَّما يعود أصلها إلى الوثنيّة. وتؤكّد بالمقابل، أنَّه، بالنسبة لمن يتّبع يسوع، تُعتبر فكرة النجاسة الطقسيّة التي تلحق المرأة ملغاة نهائيًا، وتقول في المضمار نفسه ماريز دِنس، وهي باحثة جامعيّة فرنسيّة عاشت طويلاً في روسيا، في مقال لها عن «المرأة في الفكر الروسيّ: «إنَّ الكنيسة وجدت نفسها، لحقبة طويلة، مستودعًا يجمع فيه عادات وطقوس سلفيّة موروثة من الوثنيّين، كان من شأنها أنّها خلّدت ضمن المسيحيّة نفسها النظرة السلبيّة تجاه المرأة».

تشهد النصّوص المسيحيّة الأولى على وجود نظرة أبسط وأنقى تجاه المرأة ودورها. حيث بدأت تدخل، وفي وقت لاحق، صلوات وممارسات في حياة الكنيسة، بسبب العوامل المذكورة فيما سبق، تختصّ بالتطهير والدنس والنجاسة ... ممَّا زاد دور المرأة تعقيدًا.

هذه الحقائق التاريخيّة تفتح لنا اليوم المجال لإعادة تقييم ودراسة وضع وخدمة المرأة في الكنيسة التي حَصرت الشموسيّة وكلّ الرتب

الكهنوتية بالرجل، والذي أُنيط له وحده البحث والتعليم في اللاهوت بمعزلٍ عن المرأة. ولعلَّ الكنيسة لا تستقيم اليوم إلاَّ بإعادة التشديد على بُعد «الخدمة» في تأدية الرسالة الإنجيليّة بعيداً عن التفرقة بحسب الجنس. فيسوع لم يستثنِ النسوة من تعليمه ولم يمنعهنّ من سماعه وقبول المعمودية. فبعض النساء كنّ نبيّات ورسولات، والبعض الآخر شمّاسات ومكرّسات. فالروح القدس موزع المواهب، كان ولم يزل حيّاً في الرجال والنساء على السواء.

شرطونيّة النساء واللاهوت الأرثوذكسيّ المعاصر

إنّ وجود الشمَّاسات كان، إذًا، أمرًا حيويًّا في الكنيسة الرسوليّة. وكانت خدمتهنَّ مهمّة في تبشير العائلات داخل البيوت ومساعدة الأسقف في معموديّة النساء، عبر مسحهنَّ بالزيت المقدس، وإلباسهنَّ الحلل البيضاء عند خروجهنَّ من الماء، ومتابعتهنَّ رعائيًّا ومساعدة المرضى، كما جاء في تعليم الرسل الاثنيّ عشر.

ولئن كانت الكنيسة الأرثوذكسيّة كنيسةً شرقيّة، فهي بوصفها كنيسةً حيَّة، لم تعد حكرًا على الشرق وحده. لقد تَغَرْبَنَت دول أرثوذكسيّة تقليديّة عديدة كاليونان ورومانيا وروسيا وساهمت الهجرة بالاختلاط والتزاوج بين الثقافات والمجتمعات المختلفة. هذا الواقع الجديد غيَّر من حياة المرأة الأرثوذكسيّة ووضعها. فمن التاريخ المعاصر للمجتمعات الأرثوذكسيّة، نلاحظ أنَّ المرأة في روسيا لعبت دورًا مهمًّا إبان الحكم السوفياتي. فبعضهن أنقذن هيكليّة الرعيّة في الكنيسة الأرثوذكسيّة الروسيّة من الدمار الشامل الذي خطّطت له الدولة الملحدة آنذاك. فلعبنَ دور «القندلفت» أيّ الوسيط بين السلطات العلمانيّة والكاهن، وحمَين الكهنة من مضايقات الدولة المستمرة، فضلاً عن عملهنَّ السريّ لإصدار وتوزيع منشورات كنسيّة ممنوعة، ومساعدتهنّ المعاهد اللاهوتيّة في الاستمرار بالتعليم في مخابئ تحت الأرض، إن من الناحية اللوجستيّة أو التعليميّة، وقد قُبض وحُكم على الكثير منهنَّ بالأشغال الشاقة. ممّا يعني أنَّ الكنيسة الأرثوذكسيّة يجب عليها أن لا تبقى أسيرة تقاليد قديمة، كالاعتقاد بنجاسة المرأة أثناء فترة الحيض وفقًا لتفسير سفر اللاويّين الذي يصوّر المرأة ككائن ضعيف دنيء. فبذور الإنجيل لم تزل تزهر وتعطي ثمارها في المرأة على مرّ التاريخ الكنسيّ.

فها هي المرأة تهتّم بالتعليم الدينيّ للأولاد والشبيبة لوحدها أو بالشراكة مع الكهنة. وها هي ترتل في الجوقات الكنائسيّة، وتقود أحيانًا هذه الجوقات وتشارك في مجالس الرعايا والأبرشيات. وفي النصف الثاني من القرن العشرين، تمّ قبول النساء في معاهد اللاهوت الأرثوذكسيّة، في اليونان وفي المهاجر كفرنسا وأميركا ...، كأستاذات لامعات يدرّسن موادًّا لاهوتيّة وفلسفيّة واجتماعية متخصّصة. لكن يُطرح هنا سؤال: كيف يمكن للكنيسة أن تمنع إمرأة أرثوذكسيّة ذات كفاءة، مختصّة بعلم اللاهوت، وتشغل وظيفة أستاذة العهد الجديد، أو أُخرى تشغل عميدة قسم الوعظ في كلية لاهوتيّة مرموقة ككليّة اللاهوت في تسالونيك، أو لتمنع غيرهنَّ من قراءة الإنجيل أو حتى من وعظ المؤمنين أثناء طقس الخدم الكنسيّة!

إنَّ النظام الرسولي لرتبة شموسيّة النساء لم يلغَ، بل وُضع طيَّ النسيان وتمّ تجاهله على مرّ السنين، وكلّ ما يلزمنا اليوم هو إعادة إحيائه، ومثل هذا الإحياء هو استجابة إيجابيّة لكثير من احتياجات ومتطلبات العالم الكنسيّ المعاصر في كثير من المجالات الرعائيّة والليتورجيّة والاجتماعيّة.

إنَّ الكنيسة في سعيها إلى بشرى الخلاص، حرّة من كلِّ شيء، وهي الإطار الوحيد الذي يقال فيه: «ليس يهوديّ ولا يونانيّ، ليس عبد ولا حرٌّ، ليس ذكر وأنثى، لأنّكم جميعًا واحد في المسيح يسوع» (غلاطية 3: 28)، وأنّ الطاقات الروحيّة عند المرأة ليست أدنى من مثيلاتها عند الرجل، والروح القدس يعمل داخل جسم الكنيسة عبر مؤمنيه من الرجال والنساء على حدٍّ سواء، مرشَدين بتعليم يسوع المسيح إلى كلمة الحقّ.

إنّ الواقع الراهن، واستمرارية طرح إشكاليّة وضع المرأة ليس فقط في الكنيسة وحسب، بل، أيضًا، في المجتمعات عامة، يقودنا إلى القول بأنّ المسألة ما زالت تطرح بثقلها على الجميع. نحن نعلم أن الابتعاد عن الإقرار بالمساواة بين الرجل والمرأة ما هو إلاّ ابتعاد عن تعليم يسوع المسيح وتعليم الآباء الأبرار الذين لم يميّزوا بين الرجل والمرأة من حيث مخلوقيّتهما على صورة الله ومثاله. لكن بعض التمييز بين الرجل والمرأة الحاصل في حياة الكنيسة ما هو، برأينا، إلاّ نتيجة حفظ بعض الترّسبات العائدة إلى العهد القديم والحضارات الشرقيّة المختلفة وما يتبعها من ذهنيَّات ملتصقة بمواقف الناس ونظرتهم إلى المرأة ودورها في الكنيسة. ولا بدَّ لنا ههنا من أن ننوّه أنّه في بعض المجتمعات الّتي أدركتها أفكار النهضة وحركات التحرّر في العالم، رُفع من شأن المرأة في مجالات التعليم والنشاط السياسيّ والاجتماعيّ وكذلك في المجال الدينيّ.

هذا التغيير لا يتنافى، أبدًا، مع تعليم الكتاب والآباء الذين جعلوا من المرأة نِدّاً للرجل، ولئن قسى بعض الآباء في أحكامهم عليها، فمردّ ذلك حالٌ مجتمعيّة محدّدة وخبرة شخصيّة سلبيّة.

إن دور المرأة في المجتمع وفي الكنيسة مرتبط أوّلاً وأخيرًا بالنظرة إلى الإنسان الآخر، وبنظرة الرجل إلى المرأة، بحيث يصير الاثنان واحدًا بالمسيح، لأنّهما لبسا كلاهما المسيح.